

المنصف ونّاس

الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية العربية

(تونس: الدار المتوسطة للنشر، ٢٠١١). ٣٢٣ ص.

محمود الذوايدي

- ١ -

بتعسف وقمع حرية التعبير في عهد بن علي الذي يعرّض من لا يعطي صورة إيجابية عن تونس للمضايقة أو حتى للمحاكمة، كما وقع معي في العام ١٩٩٩.

أما بالنسبة إلى جوهر مضمون كتاب **الشخصية التونسية**، فيعترف المؤلف في التقديم والتوطئة بأن مفهوم الشخصية مفهوم غامض. ورغم ذلك، فالكتاب يهدف إلى فتح باب الحوار لفهم الشخصية سوسيولوجياً: «أن نصل إلى بناء تصوّر موضوعي لتطور المجتمع التونسي، وأن نشخّص عوامل تهيئة مستقبلية لهذه الشخصية» (ص ٧). يرى ونّاس أن عدد الدراسات للشخصية التونسية قليل جداً. ومن ثم، يعتقد أن بحثه هذا يعبّد الطريق، نظرياً وتطبيقياً، في فهم الشخصية التونسية (ص ١٢). فيستعمل المؤلف المنهجية الكمية والكيفية في ما يسمّيه بمغامرته البحثية، مثل إجراء دراسة ميدانية على ٥٠٠ شخص من مناطق مختلفة من القطر التونسي ودراسة دلالات الأمثال الشعبية (ص ١٥).

صدر هذا الكتاب في بداية خريف ٢٠١٠، أي قبل ثورة تونس وهروب الرئيس بن علي في ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠١١. وقد نشرت يومئذ معظم الجرائد التونسية ملخّصات وتحليلات لموضوع الكتاب تعطي الانطباع وكأن محتوى الكتاب إيجابي حول الشخصية القاعدية التونسية. وهو عكس ما تطرحه فصول الكتاب، كما سنرى. فقد جنحت تلك الصحف إلى عدم ذكر المواصفات غير المحمودة التي تحدّث عنها المؤلف في كتاب **الشخصية التونسية**. ومن ثم، استعمل من نشروا قراءتهم للكتاب تعبيرات هلامية وغامضة عن المحتوى الحقيقي للكتاب. وهذا ما نجده مثلاً في جريدة **الشروق** الصادرة بتاريخ ٢٥/١١/٢٠١٠، ص ٢٥، وفي أسبوعية **المستقبل** الصادرة بتاريخ ٢٧/١١/٢٠١٠، ص ١٠. إن تكتّم الجرائد عن الإشارة إلى المعالم السلبية في الشخصية التونسية لا بد من أن يفسّر في المقام الأول

والثقافي لهذه الشخصية، وهيمنة البعد الواقعي عليها، وشروط وآليات تجديد مضامينها، وكيفيات إعادة بنائها» (ص ٢٦). ويعتقد المؤلف أن الشخصية القاعدية التونسية تجتمع فيها سمات التوحّد والتجانس نتيجة لمجيء عدة حضارات وثقافات إلى القطر التونسي، وهو كلام خال من المنطق، وبالتالي حَمَلٌ للتناقضات، إذ كيف تأتي سمات التجانس والتوحّد في الشخصية التونسية من حضارات وثقافات مختلفة؟ ويعود هذا التناقض إلى قصور طرحه في إعطاء دور مركزي لعاملين ثقافيين: اللغة والدين، في خلق التجانس والتوحّد أو عكسه في الشخصية القاعدية لأفراد المجتمعات، كما وقعت الإشارة أعلاه.

يعرّف المؤلف الشخصية القاعدية على أنها مخزون نفسي وذهني جماعي من دون أن يبرز الجانب الثقافي كعنصر حاسم في تشكيل الشخصية القاعدية، بما فيها الجوانب النفسية والذهنية (ص ٣١). وهذا ما يؤكده منظور علماء الأنثروبولوجيا الذي استعان به ونّاس في تعريف مصطلح «الشخصية القاعدية». فهو مثلاً يكرّر كثيراً مصطلحي «الشخصية القاعدية» أو «الشخصية الوطنية» مع بعضهما البعض، رغم ترادف المعنى بينهما (ص ٢٠ - ٢٦). كما أنه يكثر من استعمال المصطلحات الإنكليزية حول الشخصية من دون ضرورة إلى ذلك، وبأخطاء هجائية أحياناً.

يرى صاحب الكتاب أن توالي الحضارات أكسب الشخصية التونسية ثلاثية: التأقلم، والصبر، والانصهار، مما جعلها شخصية مرنة ذات عبقرية كبيرة في التكيف (ص ٣٨). وهذا ما يفسر في رأيه،

تبني ونّاس «المنظور التاريخي الاجتماعي» لتحليل العوامل التي أثرت في هندسة الشخصية القاعدية التونسية، فأبرز تأثير الرومان والوندال والبيزنطيين والعرب المسلمين والإسبان والأترك على تشكّل هذه الشخصية. ويغفل صاحب الكتاب هنا عن إعطاء «العوامل» الثقافية الدور الأكثر تأثيراً في نحت معالم الشخصية القاعدية في المجتمعات البشرية. فصحيح أن القطر التونسي مرت به حضارات عديدة قبل الفتح العربي الإسلامي وبعده. إلا أن مما لا شك فيه أن استمرار حضور تلك التأثيرات في الشخصية التونسية ليست متساوية اليوم، بسبب اختلافات وزن تأثيراتها الثقافية، المتمثلة في المقام الأول في عاملي الدين واللغة. لقد نجح العرب المسلمون في تعريب وأسلمة أفريقيا/تونس بطريقة كاملة، بحيث إن اللغة العربية والإسلام يجمعان بين الأغلبية الساحقة للسكان الأصليين من التونسيين. ومن ثم، فتأثير الفينيقيين والقرطاجيين والبيزنطيين في الشخصية التونسية اليوم هو تأثير معدوم بسبب زوال لغاتهم وعقائدهم من البلاد التونسية. وهذا ما عكسه قصة التونسي العربي المسلم الذي أغضب أمه، فصرخت قائلة له بالعامية العربية التونسية: «أيا ما تتعنترشي/ عنتر علي». ولم تقل له «أيا ما تتحنبلشي/ حنبعل علي». ويتعبير العلوم الاجتماعية، فالشخصية القاعدية التونسية منصهرة بالكامل في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية من لغة وعقيدة وثقافة وتاريخ.

يطرح ونّاس بعض الأفكار الغامضة حول الشخصية القاعدية، فيلخص هدف كتابه، فيقول: «فإننا نعتزم تحليل هذا المبحث في فصول تتناول تباعاً التشكّل التاريخي

القاعدية التونسية. وتعني «الزبونية» مقايضة الولاء بمنافع اقتصادية واجتماعية وسياسية (ص ١٢٠).

يُضيف الفصل الثاني من الكتاب قائمة طويلة لمواصفات الشخصية القاعدية التونسية. فهذه الأخيرة هي، في رأي المؤلف، شخصية واقعية، بمعنى أنها تعطي أولوية لترتيب وضبط الاختيارات في الحياة (ص ١٣٥)، وتستلذ بالزبونية والمحسوبية (ص ٢٢٧). وهي أيضاً شخصية منشغلة بنفسها ومتضامنة مع ذاتها بدرجة أولى. ويكرّر وناس قوله إن الشخصية التونسية مرنة، وذات قدرة كبيرة على التأقلم، مما يجعلها تتصف عند المؤلف بعبقورية الاندماج (ص ١٥٣). ومقارنة بالشخصية المصرية، فالشخصية التونسية ليست فهلوية، أي أنها تفتقد السخرية والتنكيت. كما يؤكد وناس أن الشخصية التونسية تميل إلى الارتشاء الذي يتمثل في المراوغة والتحايل من أجل امتلاك ما لا يجوز امتلاكه (ص ١٥٠). ثم يبرز المؤلف سمة العنف اللفظي الذي يميّز بها التونسي من بقية مواطني المجتمعات العربية. وهذا ما يتجلى في دراستي لما أسمّيه الشخصية التونسية المستنفرة^(١). كما يرى صاحب الكتاب أن الشخصية التونسية القاعدية هي شخصية غير محاورّة، وميالة إلى الشتم المباح، والمجتمع الشتم يدلّ على ضعف أو غياب احترام أفرادهم لبعضهم البعض (ص ١٧٩).

ثم يتحدث وناس عن شخصية الأستاذ الجامعي التونسي، فيبين أن

ولو جزئياً، «أن تونس هي من أكثر أقطار المغرب العربي، تعرباً، وأسلمة، وتوحّداً، من الناحية العقدية بحكم اعتمادها الكلي على المرجعية المالكية» (ص ٣٨)، وهو استنتاج يشير بالبنان إلى حتمية تأثير العوامل الثقافية، وفي طليعتها عنصر اللغة والدين، في بناء الشخصية القاعدية التونسية وتأسيس مجتمعتها.

- ٢ -

يحتل الفصل الأول من هذا الكتاب بعدة أوصاف للشخصية القاعدية التونسية. فونّاس يرى أن هذه الأخيرة هي شخصية مطواعة ومهادنة لا تفضّل المواجهة المباشرة، وتحرّض على الهروب من المسؤولية، والتنصّل من المحاسبة (ص ٦٨). وهي بالتالي شخصية التفافية. كما يؤكد المؤلف أن الشخصية التونسية هي شخصية تغلب عليها اللامبالاة إزاء الشأن العام، وهي حريصة على كسب النفع الخاص (ص ٧٦)، مما يجعلها شخصية مسابرة لظواهر الفساد. إنها شخصية ترغب في التقرب من السلطة التي طالما يقع تجاهلها بمجرد مغادرتها للحكم (ص ٨٢). يصلح هذا الأمر لتفسير استشراف الفساد في المجتمع التونسي تحت نظام بن علي.

يصف ونّاس الشخصية التونسية بأنها ذات الشللية النفعية التي تتلخّص في تحصيل مكاسب معينة (ص ٩٩)، ويتحدث عن معالم الشتم للآخر في سلوكات هذه الشخصية. ويختم المؤلف هذا الفصل بإبراز صفة «الزبونية» في الشخصية

(١) محمود الذواودي، الوجه الآخر للمجتمع التونسي الحديث (تونس: تير الزمان، ٢٠٠٦).

الأقصر، وفيه يتحدث وناس عن السمات المشتركة بين الشخصية التونسية ونظيرتها العربية. فهما شخصيتان يغلب عليهما الخوف وقمع المبادرة (ص ٢٨٢)، مما أدى إلى خلق ذهنية منتكسة تعانيتها الشخصية العربية، بحسب رأي المؤلف الذي يفسر به صعوبات التحول الديمقراطي، والعزوف عن الاهتمام بالشأن العام في تونس، وفي المجتمعات العربية، وهو تشخيص مبالغ فيه للشخصية العربية، ولا يصلح بالتأكيد لتفسير ظاهرة الثورات العربية المتتالية في مطلع عام ٢٠١١، التي أسقطت فيه كابوس الخوف، ودشنت عهداً جديداً لرياح الديمقراطية، وحرية الرأي، وكسب رهان الكرامة والعدالة بين المواطنين والجهات في المجتمعات العربية، بحيث تتقدم الشعوب العربية نحو الخلاص من معالم الفساد المستشرية في ظل الأنظمة العربية الحاكمة منذ عقود.

ويختتم ونّاس كتابه بالدعوة إلى إصلاح الشخصية التونسية والعربية من خلال إصلاحات بنيوية عميقة في نظام التربية والتعليم والثقافة والقيم (ص ٣٠٢). ومما يساعد على عملية الإصلاح هذه هو القطع مع الزبونية والجهوية والعروشية والقبلية في المجتمع التونسي، بحيث يمكن لهذا الأخير أن يتحول من مجتمع الزبونية إلى ما يسميه المؤلف بـ «مجتمع الاقتدار والاستحقاق» (ص ٣٠٨).

- ٣ -

وكما يتضح من محتوى الفصول الثلاثة للكتاب، فإن المؤلف يقدم لنا جرداً لصفات الشخصية القاعدية التونسية. وهي صفات لا ترقى إلى مستوى المفاهيم

الازدراء والهزاء والشتيم هي الصفات السائدة في علاقات الجامعيين التونسيين مع بعضهم البعض (ص ٢٠٢). كما يشير إلى وجود عقلية عامة في الوسط الجامعي التونسي تحقّر الجهد الفكري، وتبخس الإنتاج العلمي. ولا يربط المؤلف ذلك بسمة أخرى سلبية تتصف بها الشخصية التونسية، وهي ضعف التحلي بالتواضع. فرغم أن العلم والمعرفة يقتزمان في ثقافتَي الحضارتين العربية والإسلامية والغربية بالتواضع، فإن ضعف حاله في الشخصية القاعدية للجامعيين التونسيين مرشح بقوة لتفسير العلاقات غير الحميدة بينهم، كما يصفها ونّاس. ويجوز لعالم النفس والاجتماع أن يقول، في هذا الصدد، إن مما زاد ويزيد ربما في ضعف خصلة التواضع في ثقافة التونسيين وسلوكاتهم، هو شدة مدى افتخارهم بكونهم أكثر الشعوب العربية حداثة، وأنهم هم الأوائل في تفجير سلسلة الثورات والاحتجاجات العربية في المغرب والمشرق ضدّ أنظمة الحكم في فجر عام ٢٠١١، بحيث تكاد تصبح هذه الظاهرة سنّة في الأمد القريب، وربما حتى البعيد، في كامل مجتمعات الوطن العربي.

ومن ناحية أخرى، يؤكد الكتاب أن تمسك التونسي بالهوية العربية هو أول ثابت من ثوابت الشخصية القاعدية التونسية (ص ٢١٨). ويرجع ذلك بالتأكيد إلى حتمية تأثير عاملين ثقافيين، وهما اللغة العربية، والدين الإسلامي. وهو ما لا يبرزه المؤلف كما ينبغي، كما ذكر سابقاً. ويختتم ونّاس هذا الفصل بالإشارة إلى ضعف استبطان ثقافة حب العمل والإنتاج واغتيال الوقت، لدى التونسيين (ص ٢٣٤).

أما الفصل الثالث والأخير، فهو

١٩٥٦. فجميعهم لم يفلحوا في ابتكار مفاهيم سوسيولوجية مستوحاة من وقائع المجتمع التونسي المعاصر، وبالتالي فشلوا أيضاً في نحت نظريات سوسيولوجية تونسية أصيلة بسبب العلاقة الوثيقة بين المفاهيم واستكشاف النظريات وبنائها. وبفقدان المفاهيم والنظريات الأصيلة، فإن مشهد المعرفة السوسيولوجية لا يمكن أن يكون إلا قاحلاً وعاجزاً عن إنتاج المعرفة في علم الاجتماع. ويشابه وضع بقية المجتمعات العربية في إنتاج المعرفة السوسيولوجية حال وضع علماء الاجتماع في المجتمع التونسي.

وهذا ما يصفه ويشرحه بتفاصيل إضافية أ. أحمد موسى بدوي من خلال كتابه الذي يرسم الخريطة المتدهورة لعلم الاجتماع المصري^(٢). ويشخص عالماً الاجتماع سيد حسين العطاس وفريد العطاس من ماليزيا وضع العلوم الاجتماعية في آسيا المشابه كثيراً لتخلف علم الاجتماع في الوطن العربي، فيرجعان أسباب ذلك التخلف إلى ما يسميه الأول «العقل السجين»، وإلى ما يطلق عليه الثاني «التبعية الفكرية والأكاديمية» للعلوم الاجتماعية الغربية^(٤) □

التي يتوصل إليها الباحثون والعلماء، إذ تعرّف المفاهيم على أنها أقوال لا توصف لا بالصدق ولا بالبطلان، وإنما هي تقوم بمجرد تزويد النظرية برصيد من المفردات، وتحدّد موضوعها. وعندما توجد روابط بين المفاهيم في منظومة ما، فإن ذلك يساعد على بداية ميلاد نظرية^(٢).

وبناء على هذا التعريف الدقيق لمصطلح «المفهوم»، فإن الصفات التي يعتدّ ونّاس أنها صفات حقيقية للشخصية القاعدية التونسية، لا يمكن اعتبارها مجموعة من المفاهيم، بسبب أن هذه الأخيرة لا تتصف لا بالصدق، ولا بالبطلان، كما ذكر في تعريف المفهوم أعلاه. ومن ثم، لا ينتظر من صاحب الكتاب أن يتوصّل إلى نحت نظرية ذات مصداقية حول الشخصية التونسية من مجرد تقديم قائمة بتلك الصفات التي يلصقها ونّاس بالشخصية التونسية القاعدية. ومن دون إنشاء مفاهيم جديدة مستلّة من واقع الشخصية التونسية ومجتمعها، فإن المؤلف لا يقدر على إضافة معرفة علمية ذات مصداقية حول موضوع كتابه. ولا يقتصر هذا الواقع على أ. ونّاس فقط، بل يمكن تعميمه على كل علماء الاجتماع التونسيين منذ الاستقلال في العام

Encyclopedia of Sociology (Guilford: Dushking Publishing Group, Inc., 1974), p. 55.

(٢)

(٣) أحمد موسى بدوي، الأبعاد الاجتماعية لإنتاج واكتساب المعرفة: حالة علم الاجتماع في

الجامعات المصرية، سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٧٦ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩).

Syed Hussein Alatas, «The Captive Mind in Development Studies», *International Social* (٤)

Science Journal, vol. 34, no. 1 (1972), pp. 9-25, and Syed Farid Alatas, *Alternative Discourses in Asian Social Sciences: Responses to Eurocentrism* (New Delhi: Sage Publications, 2006).